العدد 2465 - السنة التاسعة
الجمعة 6 شعبان 1437 - الموافق 13 مايو 2016
Friday 13 May 2016 - No.2465 - 9th Year

إعداد : ياسر السيد

# قصة أهل الكهف .. والدروس المستفادة

كان في بلدة قديمة تدعى افسوس كان اهلها يعبدون الاصنام ويكفرون بالله سبحانه وتعالى ،وازداد السوء في المدينة عندما وصل إلى حكم ملك ظالم كافر و يدعى دقيانوس كان جائرا يعذب المؤمنين بالله عز وجل و يقتل كل من يترك عبادة الأصنام .

وفي يوم من الأيام خرج اهل ( افسوس ) في يوم عيدهم يحتفلون باوثانهم ، ويتقربون إلى أصنامهم جاهلين بان تلك الأصنام لا تنفعهم بشيء .لكن فتى من اشرافهم لم يكن مقتنعا بما يفعله قومه ، بل كان يكره عبادة الأصنام ، وكان يعبد الله الواحد سرا ، وكان يذهب متخفيا إلى مكان بعيد ليجلس تحت شجرة يسبح الله على عظيم خلقه .وبعد وقت قصير انضم إليه جماعة من الفتيان المؤمنين بالله وكانوا من أشراف الناس فجلسوا يتحدثون عن سوء عقيدة قومهم واتفق الفتية على أن يكتموا أمر إيمانهم بالله وأن يجتمعوا خفية بين وقت وآخر ليتفكرون في خلق الله ويسبحونه ويطلبون المعونة منه عز وجل و الرحمة .

وفي يوم من الأيام سمعوا بأن الملك علم بامرهم وتوعد بقتلهم وامر جنده بالبحث عنهم في كل مكان . تحير الفتية ماذا يفعلون اقرروا الثبات على دين الله و الصمود ضد الكفار و بعد ايام احضر الملك الفتية في قصره و قال غاضبا : كيف تتركون دين الملك و عبادة الأصنام هل جننتم ؟ فقالوا كلا إنما نعبد الله الواحد الخالق الرازق . فهذه الأصنام لا تخلق ولا ترزق !!فازداد غضب الملك وحددهم بالقتل في الغد إن لم يرجعوا إلى دينه.تشاور الفتية و المؤمنين ماذا يفعلون ثم قرروا الفرار بدينهم إلى كهف في الجبل ، وهناك يعبدون الله كما يشاءون دون أن يصيبهم الملك وجنوده بأذى ، جمعوا زادهم و متاعهم و توجهوا نحو الجبل فرآهم كلب وكان اسمه قطمير في الطريق فرافقهم و صار يحرسهم .

و صل الفتية متعبين إلى الكهف فتناولوا طعامهم ثم اضطجعوا قليلا ليريحوا انفسهم وإذا بهم ينامون نوما عميقا ، فمر عليهم عام إثر عام وهم راقدون لا يستيقظون .حفظ الله أجسام الفتية من التغيير مع مر السنين بان جعلهم يتقلبون نحو اليمين وأخرى نحو الشمال و كلبهم باسط ذراعيه عند باب الكهف نائما ، يرعبون بمنظرهم كل من ينظر إليهم أو يقترب منهم .

ومضى على نوم الفتية في الكهف 300 سنة (وقد ورد في القرآن «ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعا وهذا يعني ان القرآن اشار إلى التقويمين الهجري والميلادي معا فقد لبثوا في الكهف 300 سنة ميلادية و309 سنة هجرية (السنة الميلادية تزيد عن الهجرية 11:12 يوم × 300 سنة÷365 = 9 سنوات).

ثم استيقظوا وهم جياع متعبون من طول النوم فاخذوا يسالون بعضهم البعض ، كم نمتم ؟ قالوا: نمنا يوما أو بعض يوم !!كنهم رأوا شعورهم و أظافرهم قد طالت فقالوا : ربكم أعلم كم لبثتم في هذا الكهف نياما . فليذهب واحد منا إلى المدينة ليشتري لنا طعاما و ليكن حذرا لكيلا يعرفه أحد ، فيشكي إلى الملك فياخذه ، ويقتله .خرج واحد منهم إلى المدينة ، وهو حذر فدخل مدينة ( افسوس ) ، فرأى المدينة قد تغيرت ابنيتها ، و تبدلت احوالها و رأى وجوها لا يعرفها صورا لم يالفها من قبل فتحير في امره و اضطرب في مشيته ، فانتبه له الناس فتقدم نحوه رجل ، وقال له : اغريب انت عن هذا البلد؟. قال : لا لست غريبا . قال الرجل قم تنظر هنا وهناك وتبدو متحيرا ؟ . قال الفتى : إنني لا أجد مكانا لبيع الطعام فدهش الرجل منه ، لكنه اخذ بيده إلى بائع طعام . اخرج الفتى المؤمن دراهمه ، واعطاها للتاجر ليعطيه بعض الطعام فدهش التاجر لأن الدراهم قديمة ، منذ اكثر من 300 عام ، و قد نقش عليها اسم ملك قديم اسمه ( دقيانوس ) فظن انه عثر على كنز ، فنادى جيرانه واجتمع الناس بدهشة حول الفتى فتعجب من نظرتهم إليه و دهشتهم من دراهمه ، فقال لهم مم تتعجبون وهذه الدراهم يتعامل بها الناس كل يوم ؟! أليست مثل الدراهم الفضية التي تتعاملون بها ؟!! فقالوا له : هذه الدراهم منذ زمن الملك (دقيانوس ) الذي مات منذ حوالي 300 سنة .دهش الفتى المؤمن و قال : هل قلتم إن الملك ( دقيانوس ) مات منذ 300 سنة ؟!! قالوا : نعم لكن لماذا تتعجب ... اخذ الفتى يخبر الناس عن قصته و اصحابه مع الملك الظالم ، فذهل القوم عندما علموا أن هذا الفتى هو احد الفتية الإشراف .

الذين هربوا منذ تسع و ثلاثمائة سنة من حكم ملكهم الكافر .و عندما هم الفتى بالذهاب إلى صحبه قال له الناس : لا تخف فإن الملك الذي يجلس الآن على عرشه هو عبد مؤمن بالله الواحد الأحد ، كما نؤمنون أنتم ، ثم أخبرهم الفتى عن مكان الكهف ، وسبقهم إلى هناك ، فحدث أصحابه بما رآه وما سمعه وإذ بالملك يزورهم ويصافحهم و يعانقهم، و بعد حديث طويل دعاهم ليقيموا في قصره ، فقالوا : بل نبقى هنا حتى يقضي الله فينا أمره .وما هي إلا لحظات حتى شاء الله عز وجل أن يختارهم إلى جواره ، وأن يشملهم برحمته ، فوقعوا الفتية أمواتا على الأرض فدعا الملك و صحبه لهم بالمغفرة و الرحمة .

ثم أمر الملك بأن يدفنوا في كهفهم، وأن يسد باب الكهف. ثم تنازع الناس و اختلفوا، هل يبنون على فتية الكهف بنيانا يتذكرونهم أو يبنون قرب كهفهم مسجدا ؟!!ثم استقر رأيهم على أن يبنوا أمامهم مسجدا، وصار الناس يعبدون فيه الله وحده لا شريك له ، و صار الناس يتذكرون قصة أصحاب الكهف ، أولئك الفتية المؤمنين الشجعان ، و أيقن الناس بأن الله خلق الإنسان قادر على أن يخلقه مرة ثانية بعد موته ، كما أحيى الله هؤلاء الفتية بعد 309 سنة .

ووفقا للاعتقاد السائد فإن أصحاب الكهف، الذين أثنت عليهم المصادر الإسلامية و المسيحية، تعرضوا لطغيان الإمبراطور الروماني «دقيوس»، و في محاولة من هؤلاء الفتية للتصدى لظلم «دقيوس» و طغيانه، حذروا قومهم مرارا من أن يتركوا دين الله، و لكن أمام إعراض قومهم، و اشتداد ظلم الإمبرطور و توعده لهم بالقتل، ترك الفتية مساكنهم.

تكشف السجلات التاريخية عن عدد من الأباطرة الذين مارسوا سياسة الاضطهاد والإرهاب والتعذيب في حق المؤمنين من المسيحيين الأوائل الذين كانوا متمسكين بالمعتقد المسيحي الأصلي الصافي.

و في خطاب ارسله الحاكم الروماني «بيلونيوس» (690–113 ميلادية) : بشمال غرب الأناضول، إلى الإمبراطور «ترياتيوس» ،أشار «بيلونيوس» إلى « أصحاب المسيح » الذين أووا إليه، فتشير المصادر إلى عدة أماكن . ويرجع ذلك إلى سببين :

الأول :رغبة الناس في الاعتقاد بأن مثل هؤلاء الفتية الشجعان كانوا يعيشون في مدينتهم، و الثاني : الشبه الكبير بين الكهوف في تلك المنطقة ؛حيث أنه في جميع الأماكن تقريبا، يوجد مكان للعبادة يقال انه بُني فوق الكهوف .

و كما هو معروف فإن المسيحيون اتفقوا على أن تكون «إفسوس» هي المكان المقدس؛ حيث يوجد في تلك المدينة منزلا يُقال إنه للسيدة مريم العذراء، وقد أصبح فيما بعد كنيسة. لذلك فإنه من المرجح أن يكون أصحاب الكهف قد أقاموا في واحد من تلك الأماكن المقدسة . علاوة على ذلك، فإن بعض المصادر المسيحية تؤكد أن «إفسوس»هي المكان .

و بعد القديس السوري «جيمز» (وُلد452ميلادية) أقدم المصادر في ذلك الصدد، و استشهد «جيبون» المؤرخ الشهير في كتابه « تدهور و سقوط الدولة الرومانية» بالكثير من دراسة «جيمز». ووفقا لما جاء في هذا الكتاب، فإن الإمبراطور الذي عذب الفتية السبعة المسيحيين المؤمنين هو «دقيوس» . و قد حكم «دقيوس» الإمبراطورية الرومانية في الفترة ما بين 249 و 251 ميلادية .واشتهرت فترة حكمه بالوان العذاب التي مارسها ضد اتباع النبي عيسى عليه السلام.

ويرى المفسرون المسلمون أن المكان الذي وقع فيه الحدث هو إما «افسوس» أو «أفسس»، في حين يرى «جيبون» أنه «إفسوس» و لأن تلك المدينة تقع على الساحل الغربي لبلاد الأناضول، فإنها تعد من أكبر موانئ ومدن الإمبراطورية الرومانية. و اليوم يُعرف حطام تلك المدينة باسم«مدينة إفسوس العتيقة».

و يرى الباحثون المسلمون أن الإمبراطور الذي كان يحكم البلاد في الفترة التي قام فيه أصحاب الكهف من رقادهم اسمه «تيزوسيوس»، في حين يرى «جيبون» أن اسمه «ثيودسيوس الثاني» و قد حكم هذا الإمبراطور البلاد في الفترة من 408 إلى 450 ميلادية بعدما دانت الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية.

و في بعض التفسيرات المتعلقة بالآية التالية، قيل إن باب الكهف كان من نحو الشمال، وعليه فإن ضوء الشمس كان لا يصل إلى الداخل . ولهذا فإن من يمر على السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن جانب «نيرو». هو الإمبراطور الروماني الذي نكل بالمسيحيين تنكيلا شديدا. و أثناء فترة حكمه القصيرة، أجبر «دقيوس» كل من يخضع لحكمه أن يقدم القرابين للآلهة ، بل و أن يأتي بما يثبت أنه فعل ذلك و يعرضه على كبار الدولة. ومن لم يستجب منهم، كان يأمر بقتله.

تنص المصادر المسيحية على أن الغالبية العظمى من المسيحيين رفضوا ممارسة تلك الأفعال الوثنية ، وهموا بالفرار من مدينة إلى أخرى، أو الاختباء في أماكن نائية. و من المرجح أن أصحاب الكهف كانوا من ضمن هؤلاء المسيحيون الأوائل.

و في الوقت نفسه لابد هنا من التأكيد على نقطة هامة وهي أن تلك الأحداث نقلها لنا بعض مؤرخي المسلمين و المسيحيين بما يشبه الحكاية . و تحولت بعد ذلك إلى أسطورة نتيجة لما أضيف إليه من أكاذيب و إشاعات ، و لكن رغم كل ذلك فإن الحدث بعد واقعة تاريخية .

هل كان أصحاب الكهف في «إفسوس»؟

و فيما يتعلق بالمدينة التي عاش فيها الفتية و الكهف الذي أووا إليه، فتشير المصادر إلى عدة أماكن . ويرجع ذلك إلى سببين :

الأول :رغبة الناس في الاعتقاد بأن مثل هؤلاء الفتية الشجعان كانوا يعيشون في مدينتهم، و الثاني : الشبه الكبير بين الكهوف في تلك المنطقة ؛حيث أنه في جميع الأماكن تقريبا، يوجد مكان للعبادة يقال انه بُني فوق الكهوف .

و كما هو معروف فإن المسيحيون اتفقوا على أن تكون «إفسوس» هي المكان المقدس؛ حيث يوجد في تلك المدينة منزلا يُقال إنه للسيدة مريم العذراء، وقد أصبح فيما بعد كنيسة. لذلك فإنه من المرجح أن يكون أصحاب الكهف قد أقاموا في واحد من تلك الأماكن المقدسة . علاوة على ذلك، فإن بعض المصادر المسيحية تؤكد أن «إفسوس»هي المكان .

و بعد القديس السوري «جيمز» (وُلد452ميلادية) أقدم المصادر في ذلك الصدد، و استشهد «جيبون» المؤرخ الشهير في كتابه « تدهور و سقوط الدولة الرومانية» بالكثير من دراسة «جيمز». ووفقا لما جاء في هذا الكتاب، فإن الإمبراطور الذي عذب الفتية السبعة المسيحيين المؤمنين هو «دقيوس» . و قد حكم «دقيوس» الإمبراطورية الرومانية في الفترة ما بين 249 و 251 ميلادية .واشتهرت فترة حكمه بالوان العذاب التي مارسها ضد اتباع النبي عيسى عليه السلام.

ويرى المفسرون المسلمون أن المكان الذي وقع فيه الحدث هو إما «افسوس» أو «أفسس»، في حين يرى «جيبون» أنه «إفسوس» و لأن تلك المدينة تقع على الساحل الغربي لبلاد الأناضول، فإنها تعد من أكبر موانئ ومدن الإمبراطورية الرومانية. و اليوم يُعرف حطام تلك المدينة باسم«مدينة إفسوس العتيقة».

و يرى الباحثون المسلمون أن الإمبراطور الذي كان يحكم البلاد في الفترة التي قام فيه أصحاب الكهف من رقادهم اسمه «تيزوسيوس»، في حين يرى «جيبون» أن اسمه «ثيودسيوس الثاني» و قد حكم هذا الإمبراطور البلاد في الفترة من 408 إلى 450 ميلادية بعدما دانت الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية.

و في بعض التفسيرات المتعلقة بالآية التالية، قيل إن باب الكهف كان من نحو الشمال، وعليه فإن ضوء الشمس كان لا يصل إلى الداخل . ولهذا فإن من يمر على الكهف كان لا يستطيع أن يرى ما بداخله، و الآية توضح هذا المعنى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (الكهف: 17).

وأشار عالم الآثار دكتور «موسى بارن» في كتابه «إفسوس» إلى مدينة «إفسوس» باعتبارها المكان الذي كان يعيش فيه مجموعة الفتية . و اضاف قائلا:

«في عام 250 ميلادية، كان يعيش سبعة فتية في «إفسوس» وقد اختاروا المسيحية دينا لهم و تركوا عبادة الأوثان. وفيما هم يبحثون عن مكان للهروب بدينهم، عثروا على كهف بالمنحدر الشرقي لجبل «بيون». و قد رأى ذلك جنود الرومان فبنوا حائطا ليسدوا به مدخل الكهف» [1]

واليوم يشاهد العديد من المباني الدينية وقد بنيت فوق هذه الحجارة والقبور، أظهرت الحفريات التي قام بها المعهد الاسترالي الآثري عام 1926 أن الآثار التي ظهرت على سفح جبل بيون تعود إلى بناء تم تشييده تكريما لأصحاب الكهف في منتصف القرن السابع (خلال حكم ثيودوسيوس الثاني) [2].

هل أصحاب الكهف في طرسوس؟

و المكان الثاني الذي أشير إليه باعتباره المكان الذي عاش فيه أصحاب الكهف هو مدينة «طرسوس». و بالفعل فإن هناك كهفا شديد الشبه بذلك الذي وصفه القرآن الكريم ، و يقع على جبل يُعرف باسم «إنسيلوس» أو «بنسيلوس» بشمال غرب «طرسوس». و فكرة أن تكون مدينة «طرسوس» هي المكان الصحيح كان رأي علماء المسلمين.

و قد حدد «الطبري» ، و هو واحد من أهم مفسري القرآن الكريم، اسم الجبل الذي يوجد به الكهف على أنه «بينسيلوس» و ذلك في كتابه «تاريخ الأمم» و أضاف أن الجبل في «طرسوس». و قال أيضا «محمد أمين»، وهو من أشهر مفسري القرآن، أن الجبل كان اسمه «بنسيلوس» و أنه في «طرسوس». و يمكن أن تنطق «بنسيلوس» على أنها «إنسيلوس» و في رأيه أن الاختلاف بين الكلمتين يرجع إلى اختلاف نطق حرف «الباء»، أو لفقدان حرف من الكلمة الأصلية و هو ما يُعرف «بالنحت التاريخي للكلمة».

و يعتبر «دقيوس»، إلى «نيرو». هو الإمبراطور الروماني الذي نكل بالمسيحيين تنكيلا شديدا. و أثناء فترة حكمه القصيرة، أجبر «دقيوس» كل من يخضع لحكمه أن يقدم القرابين للآلهة ، بل و أن يأتي بما يثبت أنه فعل ذلك و يعرضه على كبار الدولة. ومن لم يستجب منهم، كان يأمر بقتله.

تنص المصادر المسيحية على أن الغالبية العظمى من المسيحيين رفضوا ممارسة تلك الأفعال الوثنية ، وهموا بالفرار من مدينة إلى أخرى، أو الاختباء في أماكن نائية. و من المرجح أن أصحاب الكهف كانوا من ضمن هؤلاء المسيحيون الأوائل.

و في الوقت نفسه لابد هنا من التأكيد على نقطة هامة وهي أن تلك الأحداث نقلها لنا بعض مؤرخي المسلمين و المسيحيين بما يشبه الحكاية . و تحولت بعد ذلك إلى أسطورة نتيجة لما أضيف إليه من أكاذيب و إشاعات ، و لكن رغم كل ذلك فإن الحدث بعد واقعة تاريخية .

هل كان أصحاب الكهف في «إفسوس»؟

و فيما يتعلق بالمدينة التي عاش فيها الفتية و الكهف الذي

# عظمة «الرحمن البَرّ» في خلق السماوات والأرض

قال الله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29)﴾ [النازعات: 27 – 29].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6)﴾ [ق: 6].

من آيات الله العظام خلق السموات، فهي من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها، وفي سعتها وقرارها، بحيث لا تصعد علوا كالنار، ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة، ولا عمد تحتها، ولا علاقة فوقها: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)﴾ [الرعد: 2].

وهو سبحانه الرؤوف الرحيم، الذي أمسك بقدرته السماء أن تقع على الأرض، ولولا إمساكه لها لخرت السماء على الأرض، فهو الذي خلق السماء: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (65)﴾ ... [الحج: 65].

وهو سبحانه الحي القيوم، القوي القدير، الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وكمال قدرته، ما تمتلئ به قلوبهم إجلالا له وتعظيما، ومحبة وذلا، ولو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41)﴾ [فاطر: 41].

وهو سبحانه الذي خلق سبع سماوات، كل واحدة فوق الأخرى، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، فهي حسنة كاملة متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها.

فسبحان الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، والذي خلق السموات السبع في غاية القوة والحسن والعظمة: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)﴾ ... [الملك: 3، 4].

وقد زين الله السماء الدنيا بمصابيح، وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)﴾ [الملك: 5].

وقد جعل الله هذه النجوم زينة وجمالا للسماء، ونورا وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ورجوما للشياطين الذين يسترقون السمع ويضلون العباد، ولولا هذه النجوم لكانت السماء سقفا مظلما لا حسن فيه ولا جمال.

فسبحان الذي خلق السماء وبناها، وسواها وعدلها، فلا صدع فيها ولا فطر، ولا شق فيها ولا عوج.

وسبحان من زينها بهذا اللون الأزرق، الذي هو أحسن الألوان، وأشدها موافقة للبصر وتقوية له.

وسبحان من أمسكها فلا تميل ولا تميد، ولا تزول ولا تسقط: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (117)﴾ [البقرة: 117].

ومن أراد أن ينظر إلى عظمة الخالق فلينظر إلى مخلوقاته ومصنوعاته، وعظمة أسمائه وصفاته، وآلائه ونعمه، وسعة خزائنه.

فما أعظم صنع الله في ملكوت السموات، وعلوها وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وجمالها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6)﴾ [ق: 6].

فتأمل خلق السماء، وما فيها من عجائب المخلوقات، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها.

فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة .. بل هي أحكم خلقا .. وأتقن صنعا .. وأجمع للعجائب من بدن الإنسان كما قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)﴾ [غافر: 57].

بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، لسعتها وعظمتها، وعلوها. وما فيها من الملائكة والكواكب، والشمس والقمر كما قال سبحانه ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)﴾ [الذاريات: 47].

فالأرض وما فيها من المخلوقات، بالنسبة إلى السموات وما فيها من المخلوقات، كقطرة في بحر، وذرة في جبل.

وكما خلق الله الأرض وجعل فيها الإنس والجن، فكذلك خلق السموات السبع وملأها بالملائكة الذين: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)﴾ [الأنبياء:20].

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» أخرجه الترمذي

ولعظمة خلق السموات قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها:

إما إخباراً عن عظمتها وسعتها .. وإما إقساماً بها .. وإما دعاءً إلى النظر إلى خلقها وعظمتها .. وإما إرشاد للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها .. وإما استدلال منه بربوبيته لها مع وحدانيته .. وإما استدلال بخلقها على ما أخبر به من المعاد .. وإما استدلال بحسنها واستوائها وإمساكها على تمام قدرته وحكمته عز وجل.

وخلق الأرض متقدم على خلق السموات كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)﴾ [فصلت: 9 – 12].

فسبحان الذي خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته وقوته من دخان وهو بخار الماء.

وسبحان الذي بنى السموات السبع الشداد كما قال سبحانه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12)﴾ [النبأ: 12].

فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع، الذي رفع الله سمكه أعظم ارتفاع، وزينه بأحسن زينة، وأودعه العجائب والآيات.

ثم ارجع البصر إلى السماء، وانظر فيها، وفي كواكبها ودورانها، وطلوعها وغروبها، وهي باقية إلى أن يطويها فاطرها ومبدعها.

وانظر إلى شمسها وقمرها، واختلاف مشارقها ومغاربها، ودأبها في الحركة على الدوام بأمر خالقها، من غير فتور في حركتها، ولا تغير في سيرها، إلى أن يأتي أجلها، وموعد زوالها.

وانظر إلى كثرة كواكب السماء، واختلاف ألوانها وأحجامها وأنوارها.

ثم انظر إلى الشمس، وقوة إنارتها وحرارتها، وسيرها في فلكها في مدة سنة، ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بأمر ربها، بسير سخره لها خالقها، لا تتعداه ولا تقصر عنه.

ولولا طلوع الشمس وغروبها، لما عرف الليل والنهار، ولا المواقيت، ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء.

وانظر إلى القمر وعجائب آياته، كيف يبديه الله كالخيط الدقيق، ثم يتزايد نوره شيئا فشيئا كل ليلة، حتى يكون بدرا في منتصف الشهر، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى، ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم، وعباداتهم ومناسكهم.

وما من كوكب من الكواكب إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة:

في حجمه ومقداره .. وفي شكله ولونه .. وفي موضعه من السماء .. وفي قربه من وسطها وبعده .. وفي قربه من الكوكب الذي يليه .. وفي بعده عنه .. كتفاوت أعضاء البدن واختلافها .. وتفاوت منافعها.

وقد أمرنا الله عز وجل بالنظر في ملكوت السموات والأرض لما فيها من الآيات والعبر التي تزيد الإيمان كما قال سبحانه: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (101)﴾ [يونس: 101].

والنظر إلى السماء نوعان:

الأول: نظر إليها بالبصر الظاهر، فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها، وهذا نظر يشارك فيه الإنسان غيره من الحيوانات، وليس هو المقصود.

الثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها، وبين ملائكتها، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويرى أنبياء الله ورسله الذين بلغوا دينه إلى عباده، آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السابعة، وغيرهم في السموات الأخرى.

ثم يفتح له باب بعد باب، حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته، وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في أرض فلاة.

ويرى الملائكة الذين يحملونه، والملائكة الذين حوله، حافين من حول العرش، ولهم زجل بالتسبيح والتحميد، والتقديس والتكبير.

ويرى الملك العظيم الجبار، الكريم الرحمن، مستو على عرشه، والأوامر تنزل من عنده بتدبير الممالك والجنود والخلائق التي لا يعلمها ولا يحصيها إلا ربها ومليكها.